الأخلاق

كتاب وضعه فى الإنجليزية «صمويل سميلز» ونقله إلى العربية، الأستاذ محمد الصادق حسين.

المؤلف ولد فى اسكتلندا سنة ١٨١٢ وتعلم الجراحة ومارسها مدة فى مدينة «ليدز» فى انجلترا ثم خلف رئيس التحرير فى إحدى صحف تلك المدينة. ومن العجيب أنه اشتغل بعد هذا فى شركتين للسكك الحديدية ثم اعتزل العمل وألف كتباً كثيرة نقل معظمها إلى عدة لغات ومنها هذا الكتاب.

وقد ترجمت له دائرة المعارف الإنجليزية فى الجزء العشرين من طبعة ١٩٥٧.

***

كتاب الأخلاق بعيد كل البعد عن النصائح ولكنه يضرب أمثلة عملية من الرجال والنساء الذين استقامت سيرتهم وكان لهم مبدأ فى الحياة.

والكتاب يتكون من اثنى عشر فصلا على النسق التالى:

سلطان الأخلاق- قوة البيت- العشرة والقدوة- العمل- الشجاعة- ضبط النفس- الواجب- الطبع- أدب المعاملة والفنون الجميلة- عشرة الكتب- عشرة الزوجية- تأديب التجارب.

يستهل الفصل الأول (سلطان الأخلاق) يقول «مرتن لوثر» (ما سعادة الأمم بكثرة أموالها ولا بقوة استحكاماتها ولا بجمال مبانيها وإنما سعادتها بأبنائها الذين تثقفت عقولهم، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم، واستنارت بصائرهم، واستقامت أخلاقهم، ففى هؤلاء سعادتها الحقة وهؤلاء هم قوتها الرئيسية وعظمتها الجوهرية).

وهنا نفهم خطورة الاستنزاف العقلى المسلط على أمم الحضارات القديمة من الغرب. فالاستنزاف العقلى -كما كتبت يوماً-، والتحويل الاجتماعى والتطوير الشكلى والتحديث

المظهرى والتأثير الفكرى، كلها عمليات تسير جنباً إلى جنب فى محاولة (تغريب) أمم الحضارة القديمة وبلبلتها وذبذبة مسارها بحيث تقف على الأعراف لا تنطلق فتحيا، ولا تسقط فتموت، فإن الأمم العريقة تحمل قوة فى ذاتيتها تجعلها إذا أريد بها شراً أو أريد لها الموت تنتفض انتفاضة قوية تعود معها فتية من جديد. وهذا يخيف أعداءها مهما بلغت قوتهم وبلغ ضعفها فيعوقون مسيرتها دون أن يميتوها ويمسخون سحنتها دون أن يشعروها وذلك بالاستنزاف العقلى بالدرجة الأولى.

سأل لويس الرابع عشر وزيره «كليبر» قال كيف لا أستطيع وأنا ملك فرنسا وهى الدولة العظيمة الكثيرة السكان أن أغزو هولندا وهى الأمة الصغيرة! فأجابه: ليست عظمة الأمة يامولاى باتساع أرجائها وبعد نواحيها وتنائى أطرافها إنما عظمتها بأخلاق أبنائها وما أقعدك عن هذه الأمة يامولاى إلا ما اتصف به أبناؤها من الكد والتدبير والهمة.

ومما يمسك الأمم ويعينها على الصلابة والصمود: التجرد والبساطة فإن الفخفخة، قاتلة. روى عن رجلين أرسلهما ملك أسبانيا لعقد معاهدة بـ (الهاى) عام ١٦٠٨، أنهما رأيا ثمانية أشخاص أو عشرة وقد خرجوا من زورق فافترشوا الأرض وأخذوا فى تناول طعام بسيط فسأل أحد القرويين عنهم فأجاب: هؤلاء سادتنا مندوبو الولايات فهمس أحدهما فى أذن صاحبه أن لابد من عقد الصلح فإن هؤلاء قوم لا يغلبون.

الفصل الثانى (قوة البيت) فيركز تركيزاً شديداً على (الأم).

يقول جورج هربرت: (إن أماً صالحة خير من مائة معلم. والأم فى البيت دليل للقلب والعين والتشبه بها دائم. والتشبه كما قال بيكن ليس النصائح بل القدوة أقوى من النصيحة لأنها تعليم بالفعل، تعليم بلا قول وهو أقوى تأثيراً من التعليم بمجرد الكلام فإن خير النصائح لا يفيد متى قرن بالقدوة غير الحسنة بل النصيحة إن ناقضت العمل كانت أضر من عدمها لأنها فى هذه الحال لا تعلم سوى النفاق وهو أقبح الرذائل).

يقول «امرسن» (إنما يعلم مقدار الحضارة فى الأمة بما لأمهاتها الصالحات من التأثير والمنزلة فيها).

ومع هذا يحس المؤلف الغبن الواقع على المرأة حتى بعد أن تعتلى عرش الأمومة يقول (غير أن جل ما للنساء من الأثر فى تكوين الأخلاق يبقى مجهولا بالضرورة لأنهن يقمن بجليل

أعمالهن بين جدران البيت وفى أهله حيث يكن فى عزلة عن ضوضاء الحياة باذلات ما استطعن من الكد والمثابرة فى سبيل الواجب وقل أن يدون جليل أعمالهن لأنها بيتية خاصة وقل أن يذكر فى تراجم العظماء ما كان لأمهاتهم من الأثر فى أخلاقهم وهدايتهم سبل الخير وليس ذلك بواضع من قيمتهن ولا يحط من قدرهن فإن ما لهن من التأثير وإن لم يدون يبقى بعدهن ولاتزال نتائجه تظهر إلى الأبد.

وهذا الفصل حافل بروائع القصص عن عظماء وقف وراءهم أمهاتهم فدانوا لهم بما وصلوا إليه وافتخروا بهن.

كان (جيتى) كلما زار مدينة فرنكفورت طلب كل من تودد إلى أمه وشكر له صنيعه. وهكذا كان الحال مع «شيلر».

فى فصل (العمل) حديث طلى عن الفرق بين الهواية والاحتراف فى الأدب (إن ساعة واحدة يقضيها العامل فى التأليف بعد فراغه من أعماله اليومية لخير من عمل يوم من أيام من جعل الأدب مهنة له ذلك لأن النفس فى الحالة الأولى تخرج ظمأى تندفع إلى ما يروى غلتها اندفاع الأبل إلى موارد الماء أما فى الثانية فتسير فى طريقها وقد علاها اليأس واستولت عليها الكآبة والكلل وفى أثرها، العوز يطلبها والحاجة تؤلمها كالوعل أنهكه التعب وأعياه العدو فهو يلهث وكلاب الصيد من ورائه).

وفى هذا المجال. أورد الكتاب عدة طرائف فقد نجح صمويل رتشردسن فى الجمع بين الأدب والتجارة ذلك أنه كان يؤلف رواياته فى الجزء الخلفى من دكانه ويبيعها فى الجزء الأمامى وكذلك بنيامين فرانكلين اشتهر بفن الطباعة والتجارة فى الكتب والتأليف والفلسفة والسياسة.

والفراغ لون من العمل إذا عرف الإنسان كيف يملؤه بمتعة راقية وهناك قول (رحمه الله امرءاً جعل لأوقات فراغه عملا).

ويتكلم المؤلف عن الشجاعة فى فصل كامل ويعرفها بأنها الشجاعة المعنوية التى هى ميزة فيمن بلغ من الرجال والنساء أرقى درجات الإنسانية.. هى التى يستطيع صاحبها أن يحتمل المصاعب وإن ثقلت ويكابد المشاق مهما عظمت فى سبيل الحق والواجب فإن ذلك النوع من الشجاعة أجل من إتيان خوارق الأعمال الجثمانية التى ينال أصحابها من أجلها الألقاب والتبجيل والشرف الرفيع وقد يكون منغمساً فى النجيع.

أتذكر الآن أبيات شوقى فى سقراط:

سقراط أعطى الكأس وهى منية ... شفتى محب يشتهى التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهى ذليلة ... فأبى وآثر أن يموت نبيلا
إن الشجاعة فى القلوب كثيرة ... ووجدت شجعان العقول قليلا

ويسوق الكتاب أقوالا فى مواقف شامخة لشجعان العقول فسقراط عندما صدر الحكم عليه بالإعدام التفت إلى قضاته وقال لهم: (الآن نفترق فأنا إلى الموت وأنتم إلى الحياة ولكن لا يغيبن عنكم أنه لا يعلم أينا أحسن مآلا سوى الله).

وشبيه بهذا ما قاله «برونو» حين حكم عليه بالإعدام قضاة محكمة التفتيش (ياقوم هذا الحكم أشد رهبة فى نفوسكم منه فى نفسى).

ولا يعنى هذا أن شجعان العقول لا يلقون نقداً مأجوراً أو جاهلا ولكن لا يصح إلا الصحيح ومن هنا يفقد المدح الواسع قيمته فقد جاء فى الانجيل (ويل لك إذا أصبح الناس جميعاً يترنمون بمدحك فهكذا كان شأن آبائهم الأولين مع مدعى النبوة).

وفى فصل (عشرة الكتب) لمحات مشرقة يقول (فى الكتب روح الخلود فهى أبقى آثار المجهود الإنسانى. ألم تر إلى الهياكل يأتى عليها العفاء وإلى الصور والتماثيل يذهب بها الفناء والكتب باقية فالدهر لا يصيب عظائم الأفكار).

ويقف الكتاب وقفة خاصة عند كتابة التراجم. (هل تلكم الروايات إلا تراجم مما ركبه الخيال وهل فى القصص التمثيلية سوى تراجم تؤدى على المسارح) فما بال التراجم الحقيقية.

ويتكلم عن فن كتابة الترجمة. يقول:

(الترجمة كالتصوير لابد فيه من الظل والنور فلا المصور يختار لمن يصوره الوضع الذى يظهر عيوبه ولا المترجم يبالغ فى بيان عيوب المترجم له وليس من الناس كثيرون فيهم صراحة كرمول حين جلس إلى كوبر ليصوره فقال له صورنى كما أنا بكل ما فى حتى الثآليل).

هذا المنهج فى الصدق الفنى سبق إليه اخناتون الذى طلب من المثال المصرى أن يخرج تمثاله مطابقاً له.

وفى فصل (عشرة الزوجية) يقول (لكى نرفع من مستوى العفة والطهارة فى المجتمع لابد من تناسب فى تربية الجنسين وتوافق فى تمشى تربية أحدهما مع تربية الآخر فلابد دون طهارة الرجل من طهارة المرأة. كلاهما خاضع لقانون أخلاقى واحد وإن مما يقوض بنيان الفضيلة، الذهاب إلى أن اختلاف الجنس يحل للرجل أن يتهجم على الآداب فيقدم وهو فى مأمن من العقاب على ما لو أقدمت عليه المرأة للوثت أخلاقها إلى الأبد.

اذن لابد من توافر العفة والفضيلة فى الرجل والمرأة).

وعن الرابطة الزوجية يقول: (إن فى رابطة الرجل بزوجه ما هو فوق مجرد الإجلال ورعاية الحرمة، والإحساس الذى هو مساك تلك الرابطة أبعد غوراً وأكثر رقة ولا نظير له ألبته فى رابطة الرجل بالرجل ولا فى رابطة المرأة بالمرأة).

وهنا أورد الكتاب أقوال وقصص أزواج سعداء- مع الاعتذار للأستاذ أحمد رجب- يقول ادمندبرك (كل هم يزول عنى عند دخولى بيتى) ويقول لوثر فى زوجته (إنى لا أستبدل بفقرى معها ثروة قارون بدونها).

ويقول (التبكير فى القيام من النوم والزواج فى الصغر أمران لا يندم عليهما من يأتيهما).

يلى هذا قصص رفيع عن وفاء الأزواج.

ونأتى إلى الفصل الأخير وهو تأديب التجارب.

هذا الفصل يدمى القلب ما لاقاه العلماء والأفذاذ من وحشية أعدائهم على حد تعبير المؤلف صمويل سميلز.. ومع هذا لا يخلو هذا الفصل من طرائف.. إن القلب ليحنو على لافوازيه الكيمائى الكبير ويبتسم فى الوقت نفسه والقصة أن لفوزييه عندما حكم عليه بالإعدام طلب أن يمهلوه أياماً يتسنى له فيها الاستيثاق من نتائج تجارب كان قد قام بها أثناء حبسه فرفضت المحكمة طلبه وأمرت بإعدامه فوراً وقال أحد القضاة لا حاجة بالجمهور إلى الفلاسفة.

***

عالم عريض هذا الكتاب بل عوالم شتى من البشر والصور والمواقف والأفكار والتجارب.. حيوات كثيرة عاشها أصحابها ويعيشها معهم قارىء هذاالكتاب فهو ثراء بأفراحه وأتراحه.. على السواء.

***